عائشة عصمت تيمور

(١)

البارقُ في الظلام

دعتني جمعية « فتاة مصر الفتاة » في الشتاء الماضي إلى إلقاء محاضرة على اعضائها في الجامعة المصرية . فوعدتُ . وخطر لي أنَّ خير موضوع أتخذهُ هو شخصية نسائية غنيّة ندرسها معاً . فتعرضُ لنا في سياق البحث موضوعات جمّة في الاخلاق والادب والاجتماع نمحّصها قدر المستطاع ، بينا نحن نرسم من المرأة صورة شيّقة . فنسجّلُ للحركة النسائية في هذه البلاد مفخرة اخرى تثيرُ فينا الرغبات ، ونستمدُّ من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعاً . لا سيما انَّ جمعية « فتاة مصر الفتاة » مؤلّفة من السيدات المتعلمات العاكفات على تهذيب الفتاة المصرية . وانّنا بتفحّص مكنونات الامس مساعد كبيرٌ على تقدير ما لدينا من ممكنات الغد

وما خطر لي ذلك الاّ وصحبهُ اسمٌ شجيٌّ يحيا دواماً بزفراته الحارّة المنغومة . زفرات تناقلتها الاصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يُسمع : فرسمت من الذاتية النسائية خطًّا جيلاً حين كانت صورة المرأة سديماً محجوباً وراء جدران المنازل وتكاثُم الاستتار

ورغم ذلك أنشأتْ انقّب في تاريخ المرأة بعد ان انتعشت الديار المصرية على يد محمد علي باشا منذ قرن وبعض قرن . وكنتُ كلما دقّقت نمت « التيمورية » في ذهني وتفرّدت صورتها امامي إذ لم يقمْ على مقربةٍ منها صورةٌ تسابقها أو تشبهها ولو شبهاً بعيداً . ونظرتُ اليَّ بعينيها المجهولتين المرمدتين بأنّةٍ حسرتها ، باكيةً شجوها ، مهمهمةً لي في خلوتي أبياتاً كثر امثالها في ديوانها « حلية الطراز » حيث تقول :

حيي الرفاق وصف لهم اشواقي وحدث الركب من تكاب آماقي
قد جرتني صروف الدهر مرتشفاً لواعباً كحميم او كغساق
أسال حر الهوى قلبي وابرزه جفني على يد آماقي واحداقي
فلما شرائط الهوى في القلب ملتهب ولي التنفس من آثار احراقي (١)

(١) « حلية الطراز »

فطالعتُ كلّ ما عثرت عليهِ من آثارها ، وجمعت من المعلومات عنها ما تيسّر. ولمّا كنا في ايام تعذّرت فيها الاجتماعات العامة (كما كانت متعذرة في الشتاء الماضي) رأيت ان انشر هذا البحث متوسعةً فيهِ اكثر مما كان يسمح الوقت في محاضرة او محاضرتين او ثلاث . وانا بعملي هذا مسوقة بدافع متعدّد الاسباب

اولاً — لان لعائشة فضل التقدّم بيننا وهي طليعة اليقظة النسوية في هذه البلاد

ثانياً — لان الجمهور يعرف انها « شاعرة » دون ان يلمّ بما تتكوّنُ منهُ شاعريتها ودون ان يقف على حال من احوال حياتها او يحلّل ميلاً من ميولها

ثالثاً — لانّ النظرة في مقدرتها انما هي اكتناه الذات المصرية ليس من الجانب النسويّ فحسبُ بل بوجه عام . وسنرى بعد التحليل ان لعائشة مكانتها بين ادباء عصرها وليس بين الاديبات الشرقيات وحدهنّ

رابعاً — لانها من عمّال دولة القلم عاشت في وحدتها كثيراً وأعطتنا في شعرها ونثرها صورةً مؤثرة . أما رأيها في الحياة فحقيقٌ بالانتباه والتبصّر لانهُ رأي جمهور كبير من الشرقيين والشرقيات كان شائعاً في زمانها وليس بالنادر في ايامنا هذه

خامساً — لان مثل هذا البحث يرافقهُ سرورٌ متضاعف . أليس ان جميع طبقات الناس تلذُّ لها الروايات وهي انما تمثّلُ حياة أشخاص وهميين ؟ فكيف بحياة أشخاص عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كلّ ما يعانيهِ أبطال الروايات ، هم الذين توفّرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منّا في سبات واستكانة ؟ وكم من نابغٍ قضى تاركاً آثارهُ فاكتفينا بالثناء عليها وعليهِ ثناء التأبّنات على كلّ ميت ، فظلمناهُ في حياتهِ بعد ان كان مظلوماً في حياتهِ ! فلم نستجلِ من آرائهُ رأياً ولم نحلّل من العوامل التي كوّنتهُ عاملاً

***

كلاّ ، لم نحلل بعدُ رأياً ولم نستجل عاملاً لاننا ما زلنا في هذا الفنّ الجليل أطفالاً . نظرةً الى ما يُكتب عن ثمرات المطابع عندنا ترينا (مع استثناء صغير) اننا نقابل الكتب الجديدة بأحد الانواع الثلاثة التالية : — فاما نغفل ذكرها

إغفالاً حتى وان كانت عنواناً قيماً ليقظتنا الفكرية وخطوة واسعة تستدعي الاعجاب والاغتباط . ولا يبرّر هذا الاغفال حتى ولا الاعتذار بأن الجمهور يتطلب الآن موضوعات معينة لا يرضيه سواها . لان هذا الجمهور المتّهم هو هو الذي يبتاعها ويستهلك طبعاتها . فكيف يجد متسعاً من الوقت لمطالعة كتاب بكاتبه ويضيق وقتهُ وصبرهُ دون قراءة سطور عنهُ ؟

النوع الثاني — هو اما مرقّة ذهنية لزجة مُزجت فيها موادّ الثناء والمدح والاطراء يُطلَى بهما ذكر الكتاب دعْ عنك كونهُ صائباً أو غير صائب . واما تقريظ بالاستعارات المألوفة التي لم تعُدْ تعني شيئاً يختم (كما تختم جميع الصلوات بآمين) بكلمات لا مفرَّ منها مثل « حث الجمهور على اقتناء هذا السفر النفيس » أو « التمني ان يصادف هذا الكتاب الشيّق النافع ما يستحقهُ من الرواج والانتشار »

أما النوع الثالث الذي ارادوا ان يطلقوا عليه اسم « النقد الحديث » فهو نقيض « التقريظ » العتيق . ويمكنني ان أتخيل احياناً ان جميع اصطلاحات الثناء والاطراء « أضربت عن العمل » هي الاخرى لحين ما فتكأكأت في مكان واحد متماسكة متجمدة ، ففاجأتها قنبلة تائهة فافرنقعت متطايرة أشلاءها ملتهبة تقمصت بفضل بعض النقدة « المصريين » : قذفاً وطعناً وتهجماً

ومما يؤسف له ان من هؤلاء النقدة من هو ذو مقدرة كبيرة : لو هو أنال مقدرتهُ ما تقتضيه كلُّ موهبة من التثقيف والصقل والملاينة والكياسة الفنية : فتذكر ان نقدهُ ليس بالبلاغ العسكري يعلن الاحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الاسقفي يحرم عضو من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين ، ولا هو بأمر « المعلم القروي » (على الطراز القديم) غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ امثولتهُ كما ينبغي فحظّر عليه ان يأكل ، أو يشرب ، أو يتحرك ، أو يتنفس بغير سماحه . كلاّ . ليس النقد بشيء من ذلك . إن هو الاّ نظرة فرد معرّض للخطأ في عمل فرد آخر معرّض للخطأ يختلف عنهُ ميولاً وتأثيرات وكفاءة ووراثة . واذا كان الادب واجباً في الخطاب الشفهي : فهو في الخطاب الكتابي أوجب . واول مظاهر الادب هو التهيّب امام شخصيات الناس لكونها شخصيات انسانية

فحسبُ ، فكيف بها اذا هي بذلت مجهوداً ما ، وكانت ذات ميزةٍ علمية ، أو فنية واخلاقية ؟

انّ الزم مميزات الناقد هي العطف . لستُ أعني العطف بمعنى الإغضاء والتساهل واعتبار العيوب والنقائص حسنات وكمالات . وانما أعني عكس التحامل والتعنّت ليتيسّر له التجرّد من ذاتيته تجرداً موقوتاً يتسنى معهُ الدخول في حياة المنقود شاعراً معهُ ، متوجعاً لحاجته ، مراعياً عادات بيئته ومطالبها ، خاضعاً لجميع مؤثرات المحيط . طالباً لحين غايتهُ من الحياة . والاّ فكيف يدّعي انهُ فهم المنتقد عليه ؟ وإن لم يفهمهُ فكيف يكون رسولهُ الينا ؟ كيف يجرأ امرؤ على تحويل حاجات الناس الى حاجته ، وحصر عقلياتهم في عقليته ، وسجن قلوبهم في قلبه ، وقياس أحوال حياتهم بمقياس حياته ، ثم يأتينا بحكمٍ يزعمهُ هو نهائياً بلا نقضٍ ولا إبرام ؟ ألا انّ ذاك هو الماحي وليس بالناقد . هو المتصلّب وليس بالفنّان . هو الذي يتجاهل ان النقد لا يقوم باظهار العيوب (وجميع الناس بارعون فيه) وإنما هو إحكام التمييز والتعليل ، شأن المصوّر في توزيع الانوار والاظلال على ما يجب ان تكون في اللوحة الواحدة

أعلمُ انّ بين نقدة الفرنجة كثيرين من المتحاملين ، ولكنّ ما يأتونهُ من ضروب الطعن والنهش لم يقنعني بأنّ العصمة في جانبهم ، ولم ارَ في احكامهم سوى رأيهم الخاص ليس إلا . وهذه الصورة التي أرسمُ من التيموريّة إنما هي نظارة فردية في طبيعتها ولا زعم لي انها صورة مطلقة . واتمنى ان تتنبه الرغبة في معرفتها في نفس كلّ من شاء مسايرتي فيدرسها معي متصفّحاً روحها ، راسماً لذاته صورة منها خصيصة . فان الحرية الفكرية هي ما ننعمُ به ولله الحمد . وبها سيبقى الانسان كبيراً نبيلاً وان كان في سواها عبداً ذليلاً

***

أحصيتُ الاسباب العمومية لدرس الشاعرة ؛ ولكنْ لديّ سبباً آخر ، وهو مقابلةٌ معنوية جرت لي معها منذ حداثتي القصوى

كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحيُّ متجلياً ببهجة الاعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه الثريّ . ونُصب صِوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام

فيه مهرجان الفرح كل ليلة. فما يخيم الظلام الا وتأخذ تعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاءة بتألق الانوار ومعالم الزينات الغاصة بوجوه القوم واعيانهم من تلك البلدة وضواحيها

إذ ذاك يهرع أهل الحيّ الى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون الى آهات الطرب الناعمة في الفضاء حتى لتتهادى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل. والاطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدرٌ دافئ ويحميهم من اهوال الظلام فتنتبهُ منهم النفوس لتفهم أعجوبة الالحان

كنتُ على ذلك في ليلة فاذا بصوتٍ ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك ام صبغ من الوسن يفن من السحر ام سحر من الاجفان
خال بخديك ام مسك من الدياك ترهت فكر الانام في الجفن والخالات (١)
تبارك الله ما احلاك من انسان

سمعتُ واصغيتُ ليس بنفسي كما كانت صغيرة وتتقبل بل بكل قواي الكامنة التي سينميها المستقبل وبكل ما في الايام التي عشتها وسأعيشها من أمل ويأس وسعادة وشقاء . ولعلي استشعرت بعض ما سأفهمهُ بعدئذٍ من نجوى الموسيقى الشرقية . . . تقول ان الانسان يجهل كيف ولماذا ولد ، ولكنهُ يعلم انهُ يحتاج الى السعادة التي لم يفز بعد منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب انهما أكبر سنًّا مما يظنان ، وتقول للقويّ الظافر انهُ ضعيف مدحور ، وتقول لكلّ احد ان حياتهُ كانت الى هذه الساعة خالية سخيفة قحطاء . تقول لهُ ان في الدنيا اموراً لم يختبرها وان حولهُ لها فقرٌ ومذلة وذلّة وعبودية وموت سبق الموت . تقول ان الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لان العمر قصير سريع العطب ، وان كل لحظةٍ يجب ان « تعاش » بكليا ليستخرج منها اقصى ما تكنّ . تقول ان القلب رويٌّ بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليه ليتفجّر كصخرة موسى . . . واذ تنطلق الاصوات سابحةً كالاجنحة في فردوس من الالحان ، ثم تصيح متضجّمة منتحبةً ، ثائرةً ، عاصفة تلجُّ وتتمادى يخيّل ان الفزع قد جوّف تحتها هاوية تتراءى فيها الاصداء المرتعشة . فتعكف النفس على حاجتها ووحدتها وحيرتها

(١) كذا في الاصل . اما اذا ذكره كما كنت اسمعه « ترهت فكر الانام بالعين والحاجب »

بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن والراحة في سحر الحبّ وذوب الحنان . . . ولكن العمر قصير سريع العطب ، وكلّ ما فيه موسوم بوسمه . . . ولكن الحياة مراوغة في استقامتها ، شحيحة في كرمها ، وكلّ ما فيها كريم شحيح مراوغ مستقيم . . .

هذا بعض ما قاله لي فيما بعد شهيق الاوتار ، فهل فهمتُ منهُ عندئذٍ شيئاً ؟ لا ادري . ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمشاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذي لم يكن احد يعلم ما اذا كان جمال عينيه كلاماً ام صمتاً من الرحمن ! ذلك الشخص الذي تاهت به افكار الناس فتجمهرت لتهتف : تبارك الله ما احلاك من انسان ! أتتصورون أثر هذا الرسم في مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفي نفس لينة ترتعش امام مظاهر الفنّ والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زهية في الافق الازرق ؟

***

ولطالما سمعتُ هذا « الموّال » بعدئذٍ من منشدين اصوليين وغواة يقبلون عليه إقبالهم على جميع الأدوار المصرية المشوّقة . ولكن اكانوا يعلمون من هي شاعرتهُ ؟

أُرجح ان تلك كانت نشوتي الموسيقية الاولى . فأبقت فيّ اثراً كأنما هو اشارة من روح التيمورية تنبهني . وما تبيّنت تلك الاشارة الاّ عند مطالعة ديوانها والاهتداء الى ذلك « الموّال » فيه . فادركتُ انها حدّثتني منذ زمن بعيد تلك الروح التي غاصت نفثاتها الحزينة الطروبة في ارواح المنشدين فحبستْ على اوتارهم ألحاناً ، وانطلقت على امواج الهواء فنّاً وتغريداً وابداعاً . وهكذا تلك المرأة التي وقّت زفراتها في وحدة خدرها وراء الحجاب ، صار الشجن والطرب منها فنّاً تتناقلهُ اجواء الاقطار وتتأثر بهِ ليالي الافراح في نازح الديار

كذلك برقت التيمورية في تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزاً لنور آخر خطير . ان عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل . فجاءت برقاً يبشر بحاضر المرأة المصرية ومستقبلها

(مي)